مقتضيات المخاطَب في فهم الخطاب عند علماء العرب القدامى
- من القرن الثاني الهجري إلى القرن الخامس الهجري-
في ضوء الدراسات اللسانية الحديثة

فاتح زيوان

قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة تبسة ـ الجزائر

لا ريب أن علماء العرب، كانوا على وعي عميق بتحليل وتفسير الخطاب وإدراكهم الوافي بالأسس التي ينبني عليها، متخطين البحث في النظم إلى إيضاح وتبيان العلاقات التي تربط أجزاءه، متجاوزين مهمة النحو التقليدي إلى ما أسموه بمعاني النحو، ليطرقوا قواعد التماسك فيه ووجوه تصريفه وفق أساليبهم اللغوية التي رسموها واعتادوا عليها في لغتهم، نحو توخيهم التقديم والتأخير فيه لغاية تتعلق بالمعنى وبصوغه (نظمه) وحذف عناصره والتكرير ومراعاة تآلف وانسجام الأصوات والألفاظ فيما بينها، وهي أفكار في غاية الأهمية لأنها تعين المخاطَب على تلقيه وفهمه وتذوقه، باعتباره ركنا مهما في عملية التخاطب، ومن دونه لا تتم العملية ولا تتحقق الغاية من الخطاب، وعليه فإننا سنسعى في هذه الدراسة إلى الوقوف عند أفكار علمائنا، متتبعين رؤاهم العلمية وشروطهم التي طالبوا بضرورة توافرها في المخاطَب؛ لكي يستوعب مضامين الخطاب، لنظهر للقارئ الأسس التي استندوا إليها في وضعهم لتلك المعايير والضوابط التي رأوا بضرورة توافرها فيه، حتى تتحقق الفائدة، ويتمكن بموجبها مشاركة المخاطِبَ في بلوغها وهذا لن يتأتى إلا باستقراء نصوصهم وشرحها، ثم مقارنتها بما يشيع في الدراسات اللسانية الحديثة، وبخاصة النظريات التي اتخذت الخطاب موضوعا لها، لنميط اللثام عن أفكار علماء العرب، سواء أكانوا نحويين أم فقهاء أم لغويين، ومقارنة منجزاتهم بالمنجز الغربي؛ لتبيان الإضافات التي أعطتها الثقافة الإسلامية للقارئ وما قدمته الثقافة الغربية من أفكار لسانية حديثة.

- المخاطَب:

يعد المخاطَب أحد أطراف عملية التخاطب، وبدونه لا تعقد ولا تحصل الغاية التي يهدف إليها الخطاب، فهو الذي يتلقى الخطاب من لدن المخاطِب، وهو الموكل إليه وظيفة فهمه وتحليله. وهذا الاصطلاح ـ المخاطِب ـ قد وضع له الدارسون

المحدثون عديدا من المرادفات، منها، المرسَل إليه، والمتلقي، والمخاطَب بصيغة اسم المفعول عند النحاة، والمتقبّل، والسامع، بوصفه الطرف الذي يصغي إلى ما يوجه إليه من قبل المخاطِب، والشي ذاته نحده في اللغة الفرنسية التي وضعت له مقابلات، نحو: (Auditeur)، و(Destinataire)، و(Récepteur) و (Ilocutaire)، وغيرها.

وقد أولاه علماؤنا القدماء، على اختلاف مشاربهم العلمية عناية، ونبَّهوا إلى أثره الإيجابي في نجاح عملية التخاطب (Interlocutoire)، فعدَّ شغلهم الشاغل، وصار كل شاعر أو خطيب، ينظم قصيدة أو تأليف خطاب، أول ما يراعيه هو معرفة من يخاطبه، وإدراك مستواه والطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، حتى يصل به إلى عقله، ويتمكن من تبليغ المعاني التي تجيش في صدره.

ويظهر الاهتمام عندهم، وفي مقدمهم النحاة، في تعيينهم للضمائر التي يعرف بها، وهي "أنتَ"، و"أنتِ"، و"أنتم"، و"أنتن"، وغيرها، وأسموها ضمائر المخاطَب، وهو يكون مذكرا أو مؤنثا، مفردا، أو جمعا. وكان من أولئك العلماء، الخليل بن أحمد الفراهيدي" الذي تبَّت أفكاره ورؤاه، تلميذه "سيبويه"، فقد طالب سيبويه "المخاطِب" بإفادة المخاطَب بالخبر أو الخطاب الذي لا يقع فيه لبس أو إبهام، فإن أخبر فيه عن النكرة بنكرة : « ... وذلك قولك: ما كان أحد مثلك... وإنَّما حسُن الإخبارُ ههنا عن النكرة حيث أردت أن تنفي أن يكون في مثل حاله شيء، أو فوقه ؛ لأنَّ المخاطَب قد يحتاج إلى أن تعلمه مثلَ هذا »(١).

وخاطبه سيبويه على أنه "سامع" في كثير من المواضع، من ذلك في أثناء حديثه عن مصطلح اللَّبس، الناشئ عن وجود لفظ يحتمل أكثر من معنى أو دلالة أو تركيب، يؤول إلى الغموض، فيقول: « وينبغي لك أن تسألَهُ عن خبر من هو معروف عنده كما حدَّثته عن خبر من هو معروف عندك فالمعروفُ، هو المبدوء به، ولا يُبدأ بما يكون فيه اللَّبسُ »(٢).

(١) الكتاب، الطبعة الأميرية، مج١، ج١، ص٢٦.

(٢) الكتاب، الطبعة الأميرية، مج١، ج١، ص٢٢.

مثلما عبَّر عن موضوع التخاطب في أحايين كثيرة بالمخبر به أو المتحدث به، حيث يقابل عنده "مصطلح" المسند"، الذي هو أحد الأسس الذي ينعقد به الكلام، ولا يمكن الاستغناء عنه في الكلام لأنه به تتحقق فائدة ومعنى الكلام.

وحتى يؤدي دوره في عملية التخاطب، ينبغي أن يتحلى بجملة من الصفات والقيم، التي أشار إليها النحاة على حد سواء، واللغويون بعامة، ويعمل بها، فلا يعقل أن يكون متلقيا سلبيا، مجردا من الفهم أو الحرص على استيعاب الخطاب، ولعل هذا ما أدى بـ"سيبويه" إلى رسم جملة من الخصوصيات والمبادئ، وهي على هذا النحو:

– أن يكون المخاطَب مؤهلا لتلقي الخطاب: رأى" سيبويه" أن نجاح عملية التخاطب تتم بمراعاة كثير من الوجوه والحالات التي تصاحب العملية، وأولاها أن يكون المخاطَب قادرا على فهم وإدراك مضامين الخطاب، حتى يدرأ الخطأ أو الزلل، حينما يقع فيه المخاطِب في تأليف للخطاب، ويستطيع التنبه إلى ذلك بناء على مستواه العلمي، ومعرفته الضمنية بقواعد ونظام تلك اللغة، فعلى سبيل المثال، حينما يقرأ قول المولى عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾(١)؛ يدرك أن الكلام قد يخرج به على غير مقتضى الظاهر، بمخاطبة غير العاقل في موضع العاقل: «كما تحدّث عن الأنَاسي»(٢). وهذا وجه من وجوه العرب في تصريفها للكلام، لما له من ميزة حسنة في جعله ذا جمالية وروعة في التأليف، يؤثر فيه هو بحد ذاته، وتشدّ انتباهه.

ومن ثم يتحتم عليه أن يؤهّل نفسه علميا، ويحصل على ملكة لغوية، يتمكن بموجبها من استيعاب الخطاب، ومعرفة مراميه ، دون تعسف أو تحريف فيه، أو صدور تهم باطلة من لدنه، أو حكم على الخطاب بالمغالطة، وهذا لن يتأتى له إلا

(١) النمل٢٧ / ١٨.

(٢) الكتاب، الطبعة الأميرية، مج١، ج١، ص٢٤٠.

بالتسلح بالإرادة والعزيمة، وكله أمل وشغف إلى تلقي الخطاب، موجها عنايته إزاءه، وإذا كان عكس هذا، غير مبال، وذهنه مشتت، وكان ضعيف الإرادة ؛ فإن ذلك من شأنه أن يسبب تعثرا في فهمه للخطاب، إن لم نقل تفقد العملية هدفها الذي ترمي إليه، ألا وهو حصول الفائدة ؛ ولذا فإن المطلوب منه، هو الإلمام بقواعد ونظام اللغة، وأن تكون لديه الرغبة في سماع ما يعرض عليه؛ لأنها هي بمثابة قوة تدفع عملية التخاطب وتنشطها، فيتفاعل فيها، ويصبح طرفا إيجابيا في صنع الخطاب وتوجيهه الوجهة الصحيحة، كما يجب عليه معرفة وإدراك وجوه تصريف الكلام، وفقا لما سنَّه أهل تلك اللغة، حتى لا يلتبس عليه الأمر، ففي العربية مثلا، يتحول الأمر إلى النهي، والاستفهام إلى التعجب، كما يظهر ذلك جليا في هذه الشواهد التي أوردها سيبويه، بقوله: « هذا باب حروف أُجريت مجرى حروف الاستفهام وحروف الأمر والنهي "وهي حروف النفي شبهوها بألف الاستفهام قُدّم الاسم قبل الفعل لأنهن غيرُ واجبات كما أن الألف وحروف الجزاء غير واجبة وكما أن الأمر والنهي غير واجبين وسهُل تقديم الأسماء فيها لأنها نفي واجب وليست كحروف الاستفهام والجزاء إنما هي مضارعة وإنما تجيء لخلاف قوله قد كان وذلك قولك ما زيداً ضربتُه ولا زيدا قتلته. وما عمرًا لقيت أباه. . . وكذلك إذا قلت: ما زيدا أنا ضاربُه. إذا لم تجعل له اسما معروفا. . . »(١).

وهنا يحيل سيبويه المخاطَب إلى التفريق بين الدلالات النحوية للحروف، مدعما كلامه بالشواهد التي سمعها عن العرب، فحرف النفي يمكن إجراؤه مجرى حروف الاستفهام في موضع تقديم الاسم على الفعل، نحو: "ما زيداً ضَرَبته." و" لا زيداً قتلته." فالاستفهام والسؤال هنا عن اسم الشخص وليس عن الفعل. فتحول معنى "ما" النافية إلى معنى السؤال والاستفهام، والشيء ذاته في " لا " النافية. وهذا ما

(١) الكتاب، الطبعة الأميرية، مج١، ج١، ص ٧٢.

يتطلب منه إدراكه والعمل به، وأن يعلم أن العرب نصبت الاسم الذي يرد بعد الاستفهام على الرغم من غياب فعل قبله أو اسم منصوب في مثل قولك: هل زيدا رأيت. في الاستفهام لغاية استقرار الفائدة لدى السائل، فيقول: «وإنما فعلوا هذا بالاستفهام لأنه كالأمر في أنه غيرُ واجب، وأنه يريد به من المخاطَبِ أمرا لم يستقر عند السائل، ألا ترى أن جوابه جزمٌ فلهذا اختير النصبُ »(١).

وربط سيبويه "التقديم والتأخير في المبتدأ والخبر بمدى قدرة المخاطَب على الفهم وتفريق المعاني فيه، إدراكا منه أن عملية التخاطب / المشافهة لا تتم إلا بين اثنين(مخاطِب) و(مخاطَب) فإذا استعمل المخاطِب هذا التركيب: زيدٌ منطلقٌ. فإنه قدَّم الأعرف على الأنكر، استنادا إلى سنن العرب، حيث إنها تبدأ با لأعرف لئلا يقع التباسا لدى المخاطَب، وأجازت الإخبار عن التكرة بنكرة،نحو قولك:ما كَانَ أحَدٌ مثلَكَ. لكن هذا الأسلوب الخطابي لا يكافئ أسلوب المعرفة:« لأنك لم تجعل الأعرف في موضع الأنكر وهما متكافئان كما تكافأت المعرفتان ولأن المخاطَب قد يحتاج إلى علم ما ذكرتُ لك »(٢) فإن بدأت بالنكرة فإن المخاطب سيكون في حيرة من أمره ويظل يبحث عن المعنى بالسؤال، ملّحا على المخاطِب مراعاة كفاءة المخاطَب وحصيلته المعرفية، بحيث لا يحذف عنصرا إلا إذا كان يعلم المخاطَب موضع الحذف، حريصا على المسافة بين المخاطِب والمخاطَب(٣) والغائب في الواقع التداولي، مفضلا حسن تقديم ضمير المخاطِب/المتكلم فالمخاطَب ثم الغائب وقبّح عكس ذلك، فيقول:

« ..... وإنما كان المخاطَب أولى بأن يُبدأ به من قبل أن المخاطَب أقربُ إلى المتكلم من الغائب .فكما كان المتكلِّم أولى بأن يَبدأ بنفسه قبل المخاطَب، كان

(١) الكتاب، الطبعة الأميرية، مج١، ج١، ص ٥١.

(٢) الكتاب، الطبعة الأميرية، مج١، ج١، ص ٢٧.

(٣) البعد التداولي عند سيبويه، مقبول إدريس، مجلة عالم الفكر، مج٣٣، ص٢٦٧.

المخاطَبُ الذي هو أقرب من الغائب أولى بأن يُبدأ به من الغائب »(١). وهذا من باب توسع العرب في كلامها، فهي أجرته بوجوه مختلفة، بالحذف، والمجاز، وبإجراء المفعول مجرى الفعل في اللفظ لا في المعنى:« وتقول على هذا الحد سرقتُ اللَّيْلَةَ أهلَ الدار فتُجري الليلَة على الفعل في سَعَة الكلام »(٢). وباستعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى، مثل قولك: « يطَؤُهم الطريقُ وإنما يَطَؤُهم أهلَ الطريق.. »(٣). والإيجاز هنا في نظره لأجل سعة الكلام: « ولعلم المخَاطَب بالمعنى »(٤).

فالحذف لا يكون من قبل المخاطِب عبثا وإنما هو بغرض الاتساع والإيجاز، شريطة أن يراعى فيه مقدرة المخاطب على استجلاء المعنى وفهمه، وأن يكون على علم بالمحذوف، قال سيبويه: « وإنما أضمروا ما كان يقع مظهرا استخفافا، ولأنَّ المخاطَب يعلم ما يعني، فجرى بمنزلة المثل، كما تقول: لا عليك، وقد عرف المخاطَب ما تعني أنه لا بأس عليك، ولا ضرَّ عليك، ولكنه حُذف لكثرة هذا في كلامهم »(٥). والشيء ذاته في الاستغناء عن إعمال الآخر واستبداله بلفظ الواحد في الخطاب، نثرا كان أم شعرا، قال سيبويه: « وممَّا يقوّي ترك نحو هذا لعلم المخاطَب.....فلم يعمل الآخر فيما أعمل فيه الأول استغناء عنه ومثل: ونخلَعُ ونترُك مَنْ يَفْجُرُك.....وقول قيس بن الخطيم (بحر المنسرح):

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَ أَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ وَ الرَّأْيُ مُخْتَلِفُ.

... فوضع في موضع الخبر لفظَ الواحد؛ لأنه قد علم أن المخاطَبَ سيستدل به... »(٦).

(١) الكتاب، الطبعة الأميرية، مج١، ج١، ص ٣٨٤.
(٢) الكتاب، الطبعة الأميرية، مج١، ج١، ص ٨٩.
(٣) الكتاب، الطبعة الأميرية، مج١، ج١،ص ١٠٩.
(٤) الكتاب، الطبعة الأميرية، مج١، ج١، ص١٠٩.
(٥) الكتاب، الطبعة الأميرية، مج١، ج١، ص١١٤.
(٦) الكتاب، الطبعة الأميرية، مج١، ج١، ص ٣٧.

– إدراكه لدلالات الأساليب والصيغ: تتنوع الأساليب اللغوية التي يلجأ إليها المخاطِب في تأليف خطابه، كما تتعدد أغراضها، إذ لكل منها غرض ودور في تحقيق معنى الخطاب، وهذا ما ينبغي على المخاطَب أن يعلم به، فحينما يجد "الإغراء"؛ الذي هو تكرير للفظ، وحذف للفعل، يعلم أن المخاطِب، يحثه ويرغبّه في القيام بذلك الشيء، في نحو قولك مثلا: "الاجتهادَ الاجتهادَ". فهو هنا يرغّبه في الاجتهاد، وكأنه قال له: "اقبل على الاجتهاد"، والشيء ذاته في "أسلوب التحذير" الذي فيه يحذّره المخاطِب على اجتناب شيء معين، يسيء إليه، نحو قولك مثلا: " إيَّاك وَ الأسدَ "، فالأصل فيه كأنه قال للمخاطَب: "احذر الأسدَ"، أضف إلى ذلك أنَّ دلالات الصيغ في الكلام لها أثر في بلورة معنى الخطاب، فالتعجب مثلا يجئ على صيغتين، هما: "ما أفعلَه"، و" أفعِل بِه "، نحو قولك: "ما أجمَلَ الحياةَ ! "، وفي قولك :

"أكرِم بزيد!"، وأنَّ "التَّصغير" الذي يقابل عند "سيبويه "التَّحقير"، يكون على صيغ مختلفة: "فُعَيْل"، و" فُعَيْعِلٌ"، و" فُعَيْعِيْلٌ " وأغراضه عديدة، منها، التَّحبب، في مثل قولك:

" بُنَيٌّ "، و "أُخَيٌّ "، أو تقريب الزمان والمكان، في مثل: " قُبَيْلَ "، و" بُعَيْد "، أو لغرض التحقير: وذلك قولك : في قَوْمٍ " قُوَيْمٌ " وفي رجل " رُجَيْلٌ "»(١).

كما نبهه سيبويه أيضا إلى أن إلحاق الكاف بكلمة "رويدا " هو من أجله هو ؛ حتى يدرك أنه هو المخصوص بذلك الشيء، قال سيبويه: «واعلم أن رُويدا تلحقها الكافُ وهي في موضع افْعَلْ وذلك قولك رُويدك زيدا ورُويدَكُم زيدا وهذه الكاف التي لحَقت إنما لحقت لتُبيِّنَ المخاطَبَ المخصوصَ لأن رُويدَ تقع للواحد والجمع والذكر والأنثى فإنما أدخل الكاف حين خاف الْتباسَ مَنْ يعني بمن لا يعني وإنما

(١) الكتاب، الطبعة الأميرية، مج٢، ج٢، ص١٤٢.

حذفها في الأول استغناء بعلم المخاطَبُ أنه لا يعني غيره»(١).

وهذه اللطائف اللسانية التي أوردها سيبويه بشأن المخاطَب، والتي حدد فيها شروط تلقيه للخطاب، والتي نحصرها إجمالا في ضرورة امتلاكه لنظام وخصوصيات تلك اللغة، بحيث تكون لديه الإرادة والعزيمة على تلقيه، فيصبح بذلك من الفئة التي يحق لها تلقي الخطاب، ذلك أن المخاطِب لا يعرض خطابه على عامة الناس، وإنما يراعي فيه المخاطَب الذي تكون لديه حصيلة معرفية وعزيمة على تلقيه، فأهليته من المقتضيات التي يلّح عليها الدرس اللساني الحديث ؛ لأنه يقع على عاتقه فهم وتحليل الخطاب الملقى على مسمعه، مما يستدعي أن يكون كل واحد منهما (المتخاطبان) على معرفة وافية بلغة التخاطب وأساليبها، وأن يكون لديهما معرفة مشتركة والتي تمثل عند طه عبد الرحمن: « جملة من الاعتقادات والتصورات والتقويمات عن الذات والغير والأشياء والمعاني، يشترك فيها المتكلم والمخاطَب مع جمهور الناطقين، وقد نميز فيها أقساما أربعة: "معرفة لغوية" و"معرفة ثقافية" و"معرفة عملية" و"معرفة حوارية" »(٢).

وهذا ما آل بالدراسات اللسانية الحديثة إلى الحرص على توسيع مدارك وأفق المخاطَب العلمي والثقافي، مثلما نبهت إليه مدرسة "كونستانس" (Constance)، بتطوير ملكته اللغوية، حتى يتمكن من فهم الخطاب ؛ لأنَّ دوره ليس دورا محايدا، ينحصر في التقبل، بل يتعداه إلى تأويل الخطاب وتفسيره ومشاركته المخاطِب في الخطاب، فعنه تتولد الوظيفة الإفهامية (Fonction Conative) نحو ما ذهب إليه "رومان جاكبسون"، وهذا ما فطن إليه "سيبويه" منذ قرون، داعيا المخاطَب إلى إدراك واف بنظام اللغة ومعرفة شاملة لأساليبها، وهو ذاته الذي دعت

(١) الكتاب، الطبعة الأميرية، مج١، ج١، ص١٢٤.

(٢) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص ١٥٢.

إليه ثلة من علمائنا الذين جاءوا من بعده، فأتموا ما يستحق الإتمام، فالشافعي- ت٢٥٥ هـ "ذكَّر المخاطَب ببعض الصفات الواجب عليه العمل بها إذا ما أراد أن يكون في الخطاب فاعلا لا مفعولا، وبالتالي يسهل عليه فهمه واستيعاب مكنوناته، ولعل أهمها، هو أن يكون ذا معرفة مسبقة بأساليب العربية وطرائق التعبير فيها، ففي قوله تعالى مثلا: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، إِنَّ الذِّيْنَ تَدْعُوْنَ مِنْ اللَّه لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوْهُ مِنْهُ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوْبُ ﴾(١) يدرك: «أنَّ مخرج اللفظ عام على الناس كُلِّهم، وبيّن عند أهل العلم بلسان العرب منهم أنَّه إنما يراد بهذا اللفظ العام المخرج بعض الناس دون بعض، لأنه لا يُخاطَب بهذا إلا من يدْعو من دون الله إلها»(٢).

والمقصود من هذا أن المخاطَب العالم العارف بخبايا لسان العربية، يفهم من هذه الآية الكريمة أن المولى عز وجل قصد بخطابه فئة معينة من الناس، والتي تشرك بالله وتدعو من دونه إلها. وهذا لن يحصل له إلا بعدما يمتلك زمام اللغة العربية وأساليبها البيانية. فالمخاطَب إذا مطالب بتعلم لغة التخاطب، ولسان العربية على وجه الخصوص الذي اعتنى به الشافعي أيَّما عناية، فهو يدرك أنه معني مثلا بخطاب ـ ما أوصى به ـ خير البرية جمعاء محمد عليه الصلاة والسلام في وصية الوداع على الرغم من أنه ـ المخاطَب ـ لم يكن حاضرا، والشيء ذاته في قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِيْنَ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُوْنَ ﴾(٣).

ففي هذه الآية الكريمة، كما يقول "الشافعي"، ذكر "قصْمَ القرية": «فلما ذكر أنها ظالمة بان للسامع أن الظالم إنما هم أهلُها، دون منازلها التي لا تَظْلِمُ، ولما ذكر

(١) الحج٢٢ / ٧٣.

(٢) الرسالة، بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، ص٦٠.

(٣) الأنبياء٢١ / ١١، ١٢.

القوم المُنشَئِيْنَ بعدها، وذكر إحساسهم البَأسَ عند القَصيم- : أحاط العلمُ أنه إنما أحسَّ البأس مَنْ يعرف البأسَ من الآدميين »(١). وهذا الأسلوب الذي تتميز به العربية، حيث يخرج فيها الكلام عن مقتضى الظاهر، به يكتسي الخطاب رونقا وجمالا في التأليف، ولفت انتباه المخاطَب، إلى إعمال فكره، لفهم مضمونه، فالمولى جلت قدرته، أخرج الكلام عن مقتضى الظاهر، وهو نوع من الالتفات والعدول باللفظ عن ظاهره إلى معناه العميق، إذ خاطب القرية، ويقصد أهلها، والقرينة التي أحالت إلى هذا المعنى، هو استعماله للفظة "ظالمة "، فالظلم لا يكون من القرية، باعتبارها شيئا غير عاقل، وإنما يصدر عن العباد، وهم أهلها. وهذا المعنى لا يبلغه المخاطَب إلا بعدما يكون مطلعا على وجوه وأساليب تصريف الكلام في العربية، ذلك أن المخاطِب قد يلبس خطابه، ألفاظا ظاهرها غير باطنها، أو يدلّسه كما يدلّس الحديث مما يحتاج إلى تبيين كلامه، بقوله "حدثني" أو سمعت" فيقبله المخاطَب.

ومن هنا نجد "الشافعي"، يؤكد كلام سيبويه فيما ذهب إليه بخصوص، ضرورة إحراز المخاطَب على ملكة لسانية ومعرفة بنظام تلك اللغة وأساليبها، وهو ذاته ما نبهت إليه نظريات اللسانيين المحدثين، وبخاصة نظرية التواصل عند رومان جاكبسون.

ورأى الجاحظ"ت٢٥٥ هـ" أنَّ المخاطَب طرف أساسي في عملية التخاطب، إذ له فضل كبير في نجاحها، فإليه : « جعل اللفظ، وجعل الإشارة للناظر »(٢).

وقد أظهر الجاحظ دوره، من خلال مساعدته المخاطِب في عملية الفهم، معتبرا إياه شريكا في صنع ونجاح عملية التخاطب، فقال: « والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل. »(٣). لكن لن تتمر وظيفته هذه إلا بعدما يتحلى بجملة من

(١) الرسالة، بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، ص ٦٣.

(٢) الحيوان، شرح وتحقيق يحيى الشامي، مج١، ج١، ص ٣٧.

(٣) البيان والتبيين، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، مج١، ج١، ص ١٤.

الصفات والخصوصيات، ويحرص على تأديتها، أوجزها الجاحظ ـ برأينا ـ في المبادئ الآتية:

– أن يكون مِثجًّا (أي سائلا): يدعو الجاحظ المخاطَب إلى المبادرة بالسؤال والاستفسار عمَّا يرد مستعصيا عليه فهمه في الخطاب، وهذا من شأنه أن يفيده، آجلا أم عاجلا في تحليل الخطابات التي يسمعها مستقبلا، ذلك أن تزوده بالمعرفة المسبقة، يساعده بلا شك على الإلمام بمعاني الخطاب، وهنا يروي لنا الجاحظ قصة عن علي بن صالح الحاجب، عن العباس بن محمد قال: «قيل لعبد الله بن عباس: أنَّى لك هذا العلم؟ قال: قلب عقول، ولسان سؤول»[١].

فبالسؤال يدرك المخاطَب معرفة ومعاني لم يكن على علم بها من قبل، فيحاول استثمارها في أثناء سماعه لخطاب يلقى على مسمعه، وهذا يضيف إليه أن ملكته وحصيلته المعرفية، تتطور شيئا فشيئا، ويزداد هذا بخاصة عند مجالسته لأهل البيان، قال الجاحظ: «والإنسان بالتعلم والتكلُّف، وبطول الاختلاف إلى العلماء، ومدارسة كتُب الحكماء، يجود لفظه ويحسنُ أدبُه، وهو لا يحتاج في الجهل إلى أكثرَ من ترك التعلم، وفي فساد البيان إلى أكثر من ترك التخيُّر»[٢] واستحسن الجاحظ من قال: «مُذاكرة الرجال تلقيح لألبابها»[٣]. فالعقول تنمى من خلال التعايش ومخالطة أهل العلم والمعرفة، فبمخالطة المخاطَب مثلا لأبناء المجتمع الذي يتحدث بتلك اللغة، يستطيع فهم خطاباتهم وأساليبهم اللغوية، وقد روى الجاحظ في هذا المضمار رواية عن قول أبي الجَهير الخراساني النخاس، حين قال له الحجّاج أتبيع الدوابّ المعيبَة من جُند السلطان؟ قال: «شريكاننا (جمع شريك في الفارسية) في هوازها، وشريكاننا في مداينها. وكما تجيء نكون. قال الحجَّاج: ما

(١) البيان والتبيين، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، مج١، ج١، ص٦٦.

(٢) البيان والتبيين، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، مج ١، ج١، ص٦٧.

(٣) الرسائل، بتحقيق عبد السلام محمد هارون، ج٣، ص٢٩.

تقول ويلك؟! قال بعض من قد كان اعتاد سماعَ الخطاء وكلام العُلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك: يقول شركاؤنا بالأهواز وبالمدائن، يبعثون إلينا بهذه الدواب، فنحن نبيعها على وُجوهها. ... ولو لا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام، لما عرَفه»(١). فمخالطة أهل العلم، ومساءلتهم، من شأنهما أن يؤديا إلى تكوّن حصيلة معرفية لدى المخاطَب، يستغلها في تحليل الخطاب.

– أن يكون حريصا على تلقي الخطاب: ذهب الجاحظ إلى أن المخاطَب، ينبغي عليه العمل بهذا الشرط، لكي تحصل الفائدة من عملية التخاطب، بحيث تكون لديه الإرادة والرغبة الكافية والعزيمة على استيعابه وتحليله، وكشف مضامينه، وهذا يفرض عليه أن يكون باله واهتمامه منصبا إزاءه، دون غيره، فلا يجعل باله مشتتا بين شتى الموضوعات والظروف الخارجية التي تؤثر عليه سلبا في إدراك ومشاركة المخاطِب في تحصيل المعنى والفائدة من الخطاب، وهذا يستدعي منه، أن يكون متمتعا بنوع من الأريحية و رغبة في تلقيه، قال الجاحظ: «ولا يمكن تمام الفهم إلا مع تمام فراغ البال»(٢). فإقبال المخاطَب على الخطاب عن قصد و إرادة وحرص من لدنه، شرط ضروري في اكتمال وتحقيق الغاية التي يرمي إليها الخطاب. ذلك أن :« مدار الأمور والغاية التي يُجرَى إليها: الفهمُ ثم الإفهامُ »(٣). وهذا لن يحصل إلى بعد أن يحسن ويخلص المخاطَب الإصغاء إلى المخاطِب، على اعتبار أن: «للقائل على السامع ... جمع البال... »(٤)، أو كما قال "أبو عقيل بن دُرُست" : «إذا لم يكُن المُستمع أحرصَ على الاستماع من القائل على القول، لم

(١) البيان والتبيين، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، مج١، ج١، ص١١٥.

(٢) البيان والتبيين، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، مج١، ج٢، ص٢٨.

(٣) البيان والتبيين، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، مج ١، ج٢،ص٢٦.

(٤) البيان والتبيين، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، مج١، ج٢، ص٢٧.

يبلُغ القائل في منطقه..»(١).

وفيما يتبدى لنا من هذا كله أن الجاحظ أولى عناية خاصة بالمخاطِب باعتباره، هو ناظم الكلام أكثر من عنايته بالمخاطَب الذي طالبه بأن يسمع مخاطبه ويجالس العلماء حتى تنضج ملكته اللغوية، ويكتسب نظام تلك اللغة، مبينا أنه شريك أساسي في عملية التخاطب، وهذا ما تذكره الدراسات الحديثة التي عرَّفت المخاطَب(٢) على أنه متلقي الخطاب العارف بخصوصيات اللغة وأساليبها اللغوية، وهوا لذي تنتج عنه الوظيفة الإفهامية كما يذهب إلى ذلك "رومان جاكبسون" (Roman jackobson).

وراح ابن قتيبة "ت٢٧٦ هـ" يبين للمخاطب أن هناك للعرب ما في كلامها، تتكلم به مثنى والعامة تتكلم بالواحد منه، مقدما أمثلة، إذ: «يقال اشتريت زوجي نعال. ولا يقال زوجَ نعال؛ لأن الزوج ههنا الفرد، ويقال: اشتريت مِقْرَاضَيْنِ و"مقصين"... ولا يقال "مقراض" ولا "مِقص"... وجاءت المرأة بتوأمين ولا يقال توأم؛ إنما التوأم أحدهم...»(٣).

وذهب "المبرد- ت٢٨٥ هـ" إلى أن المخاطب عليه أن يعرف نظام الجملة ومكوناتها، وأنه بها يخاطَب، باعتبارها تركيبا إسناديا يحسن السكوت عليه، فالفعل والفاعل جملة، نحو قولك: "قام عبد الله". قال المبرد بشأن الجملة: «...تجب بها الفائدة للمخاطب....ك جلس زيد. فالفعل والفاعل جملة. أو قولك: القائم زيد»(٤)، ثم أعلمه بأن هناك جملا تؤدي معاني في مقام، وهي

(١) البيان والتبيين، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، مج ١، ج٢، ص٢٠٦.

(2) Auditeur= npersonne qui écoute un discours, une émission Radiophonique, etc))--Dictionnaire usue l760, iBid, p. 71.

(٣) أدب الكاتب، حققه محمد الدَّالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٩، ص ٤٢١.

(٤) المقتضب، بتحقيق عبد الخالق عظيمة، ج١، ص ٨.

ذاتها مرفوضة في مقام آخر، محددا نماذج الكلام المختلفة التي هي مرفوضة في اللسان العربي، نحو قولك مثلا: أنا عبد الله منطلقا. أو قولك: هُو زيدٌ. فهذان التركيبان فاسدان من حيث المعنى؛ لأنه لا يجوز أن تضمر ثم تظهر في آن واحد إلا في حالة علم المخاطَب بمن تقصده و في مقام محدد، كتصغير نفسك إزاء خالقك، فتقول:

أنا عبد الله ضعيفا، جاء ذلك في قوله: «وتقول: زيد أبوك حقا، وهو زيد معروفا، وأنا عبد الله أمرا واضحا. وذاك لأن هذه الحالات إنما تؤكد ما قبلها، لأنك إذا قلت: هو زيد وأنا عبد الله. فإنما تخبر بخبرين، فإذا قلت: معروفا وبيّنا- فإنما المعنى أني قد بيَّنت لك هذا وأوضحته، وفيه الإخبار، لأنه عليه يدل. ولو قلت أنا عبد الله منطلقا. لم يجز. لأن المنطلق لا يؤكّدني. ألا ترى أنك لو قلت: أنا عبد الله منطلقا، لكان المعنى فاسدا، لأن هذا الاسم لا يكون لي في حال الانطلاق، ويفارقني في غيره، ولكن يجوز أن تقول: أنا عبد الله. مصغِّرا نفسك لربّك، ثم تقول: آكلا كما يأكل العبيد، وشاربا كما يشرب العبيد، لأن هذا يؤكد ما حدّدت به، وكذلك لو قلت مفتخرا أو موعدا: أنا عبد الله شجاعا بطلا. وهو زيد كريما حليما، أي فاعرفه بما كنت تعرفه به، كان جيدا. وهذا باب إنما يفضله ويفسده معناه، فكل ما صلح به المعنى فهو جيد، وكل ما فسد به المعنى فمردود»(١). وهو بنصه هذا يعكس لنا بوضوح وجوه وضروب الكلام في العربية التي يرد عليها، محددا لنا معيار قبوله ورفضه، بالتركيز على المعنى، فبفساده يرفض الخطاب وبحسنه وموافقته له يكون مقبولا لدى المخاطَب.

ولهذا دعاه "المبرد" إلى مراعاة المعنى في التفريق بين دلالات الخطاب أو الكلام، فالمبرد حينما استعصت على الكندي مسألة لغوية ورأى أنها حشو في الكلام،

(١) المقتضب، بتحقيق عبد الخالق عظيمة، ج٤، ص٣١٠.

بقول العرب: "عبد الله قائم"، و"إنَّ عبد الله قائم"، و" إنَّ عبد الله لقائم"، أجابه من خلال إدراكه لمعاني الأدوات التي أضيفت للتراكيب، الشيء الذي كان يجهله الكندي، باعتباره مخاطَبا، معتبرا الجملة الأولى"عبد الله قائم" . مجرد إخبار، و"الجملة الثانية "هي جواب عن سؤال سائل، والجملة الثالثة، هي جواب عن إنكار منكر بقيام زيد(١). وهذه برأينا التفاتة من "المبرد" إلى توجيه المخاطَب إلى الغوص في دراسة أساليب التعبير في اللغة العربية، حتى لا يتهم اللغة بالحشو أو ما شابه ذلك، فحصوله على مستوى ثقافي، أمر هو من المقتضيات التي توجبها عملية التخاطب.

وهذا لا يختلف كثير عمَّا ذكره ـ من بعده ـ ابن جني"ت٣٩٢هـ" الذي هو الآخر خصَّ "المخاطَب" بعديد من النصائح، تساعده على تلقي الخطاب بيسر وسهولة، من ذلك مثلا، أن يكون على علم بأن الكلام في العربية يصرف بوجوه مختلفة، فالتام من الكلام مثلا، حينما يزاد عليه يعود ناقصا: «في مثل قولك :قام زيد؛ فهذا كلام تام، فإن زدت عليه فقلت: إنْ قام زيد صار شرطا، واحتاج إلى جواب. وكذلك قولك: زيد منطلق؛ فهذا كلام مستقل فإذا زاد عليه أنَّ (المفتوحة فقال أنَّ زيدا منطلق) احتاج إلى عامل يعمل في أنَّ وصلتها»(٢). وأن يعرف وجوه تصريف العرب لكلامها، بالحذف أو التقديم والتأخير، أو العدول بحرف مكان حرف آخر، ففي التقديم والتأخير، نحو: تقديم المفعول على الفاعل، كضرب زيدا عمرو، وزيدا ضرب عمرو، وكذلك الظرف؛ نحو قام عندك زيد، وعندك زيد، وسار يوم الجمعة جعفر... ولا يجوز تقديم المفعول معه على الفعل؛ نحو قولك: والطيالسة جاء البردُ، من حيث كانت صورة هذه الواو صورة العاطفة؛ ألا تراك لا

(١) هذا المثال استشهد به عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز في علم المعاني، طبعة دار المعرفة، ص٢٠٩.

(٢) الخصائص، بتحقيق محمد علي النجار، ج٢ ، ص٢٧٤.

تستعملها إلا في الموضع الذي لو شئت لاستعملت العاطفة فيه؛ نحو جاء البرد والطيالسة. ولو شئت لرفعت الطيالسة عطفا على البرد »[1]، وأن يدرك مواضع التحريف في العربية، والتي تكون في الاسم، والفعل، والحرف فالاسم مثلا يأتي برأي "ابن جني" على: «ضربين: أحدهما مقيس، والآخر مسموع... وذلك قولك في الإضافة إلى نمر: نمريّ،. ..وإلى قاض: قاضويّ... وكذلك التحقير وجمع التكسير؛ نحو (رجل) ورُجَيل ورجال..»[2]. وكأني بابن جني، يريد أن يقول للمخاطَب عليك بالإلمام بباب شجاعة العربية (من مجاز، وحذف، وزيادة وتقديم وتأخير، وزيادة...) حتى تتمكن من تحليل وفهم الكلام وما يحتويه من أفكار، وأن تعلم أنَّ: «ما قيس على كلامهم فهو من كلامهم.. وحكى الكسائي أنه سأل بعض العرب عن أحد مطايب الجزُور، فقال: مَطيب؛ وضحك الأعرابيُّ من نفسه كيف تكلَّف لهم ذلك من كلامه. فهذا ضرب من القياس ركّبه الأعرابي، حتى دعاه إلى الضحك من نفسه، في تعاطيه إيَّاه. وذكر أبو بكر أن منفعة الاشتقاق لصاحبه أن يسمع الرجل اللفظة فيشك فيها، فإذا رأى الاشتقاق قابلا لها أنس بها وزال استيحاشه منها. فهل هذا تثبيت اللغة على القياس.. »[3].

كما دعاه إلى مشاهدة المخاطِب في أثناء عرضه للخطاب، لما فيها من فائدة جمة، إذ تمكنه من فهم مقاصد ومعاني الخطاب، ذلك أنَّ المخاطِب، يلجأ في أثناء إلقائه له إلى استخدام بعض الإشارات والملامح التي تبدو على تقاسيم وجهه، فتعينه في إدراك مضمونه و التنبه لبعض الأفكار التي قد استعصى عليه فهمها، فقال:« أولا تعلم أن الإنسان إذا عناه أمر فأراد أن يخاطِب به صاحبه، ويُنعم تصويره له في نفسه استعطفه ليُقبل عليه؛ فيقول له: يا فلان، أين أنت، أرِني

(١) الخصائص، بتحقيق محمد علي النجار، ج٢، ص٣٨٥.

(٢) الخصائص، بتحقيق محمد علي النجار، ج٢، ص ٤٣٨.

(٣) الخصائص، بتحقيق محمد علي النجار، ج١، ص٣٧٠.

وجهك، أقبل علي أحدِّثك، أما أنت حاضر ياهناه. فإذا أقبل عليه، وأصغى إليه، اندفع يحدّثه أو يأمره أو ينهاه، أو نحو ذلك. فلو كان استماع الأذُن مغنيا عن مقابلة العين، مجزئا عنه لما تكلّف القائل، ولا كلّف صاحبه الْبال عليه، والإصغاء إليه. وعلى ذلك قال (بحر البسيط) :

العَيْنُ تُبْدِي الذِّي في نَفسِ صَاحبِهَا مِن العَدَاوَةِ أو وُدٍّ(١) إذَا كَانَا.

... أفلا ترى إلى اعتباره بمشاهدة الوجوه، وجعلها دليلا على ما في النفوس. »(٢).

فمشاهدة حال المخاطِب ـ بلا شك ـ تساعد المخاطَب في استيعاب الخطاب، ولذلك تمنى "ابن جني" لو شاهد علماء العرب وهم يتعاطون الكلام لما لها من فائدة في تأديته، بعكس الروايات والحكايات التي قد تقصر في أدائه ونقله، لما يصحبها من تحريف أو تصحيف، فيقول: «فليت شعري إذا شاهد أبو عمرو وابن أبي اسحاق، ويونس، وعيسى بن عُمر، والخليل، وسيبويه، وأبو الحسن... ومن في الطبقة والوقت من علماء البلدين، وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها، ونقصد له من أغراضها، ألاّ تستفيد بتلك المشاهدة وذلك الحضور ما لا تؤديه الحكاياتُ، ولا تضبطه الروايات، فتُضطر إلى قُصود العرب، وغوامض ما في أنفسها، حتى لو حلِف منهم حالف على غرض دلّته عليه إشارة، لا عبارة، لكان عند نفسه وعند جميع من يحضُر حاله صادقا فيه... »(٣).

وهذا آل بابن جني إلى أعتبار أن ما يصاحب المخاطِب من إشارات له دور في تحقيق الفائدة من الخطاب، إلى درجة أنه أيّد مشايخه الذين قالوا: « رُبَّ إشارة أبلغ

(١) أورد الجاحظ الشطر الثاني من البيت على هذا النحو "مِن المحبة أو بُغْضٍ إذا كَانَا" خلافا لابن جني.- ينظر، البيان والتبيين، مج١، ح١، ص٦٢

(٢) الخصائص، بتحقيق محمد علي النجار، ج١، ص٢٤٨.

(٣) الخصائص، بتحقيق محمد علي النجار، ج١، ص٢٤٩.

من عبارة »[1]؛ نتيجة لفائدتها في كشف اللثام عن مضمون الخطاب/الكلام.

فمشادة حال المخاطِب من قبل المخاطَب، تعينه على فهم الخطاب وتحقيق محصوله كما يقول ابن جني، خاصة وأن المخاطِب هو الذي يعمل في خطابه الرفع أو النصب[2]، ليعلن صراحة رفضه للتفسير الذي وضعه النحاة لفكرة العامل، فالرأي عنده أنَّ العامل في الكلام مرده إلى المخاطِب نفسه لا لشيء غيره؛ مصرّا على نقده البنَّاء للنظرية النحوية العربية، وبالأساس فكرة العامل في النحو، والهدف من نقده اللساني لهذه النظرية النحوية العربية، هو محاولة منه توظيفها في المهمة الأساسية التي كانت تعترض اللسانيات العربية، بتسويغ مشروعية الخطاب اللساني[3]، بنقده للخطاب النحوي، فهو لم يقتنع بالحجج التي ساقها النحاة في تفسير ضبط أواخر الكلم، وعزا ذلك للمخاطِب موضحا أن مشاهدة حاله وهو يخطب من قبل المخاطَب لها نفع كبير في فهم الكلام، طالما أنه هو الذي يضبطه بالشكل، وتبنيه لهذه الفكرة ـ المشاهدة ـ جعلته يؤيد مشايخه، بقوله:

« فلو كان استماع الأذن مغنيا عن مقابلة العين مجزئا عنه، لما تكلف القائل ولا كلَّف صاحبه الإقبال عليه، والإصغاء إليه.. .... وقال لي بعض مشايخنا ـ رحمه الله ـ أنا لا أحسن أن أكلم إنسانا في الظلمة »[4]. وهي ذاتها ـ مشاهدة حال المخاطِب ـ التي دعا إليها اللساني الوظيفي " ل. بلومفيلد" من أنَّ: « كل ما هو موجود في محيط المتكلم بما في ذلك استعداداته الداخلية في الوقت الذي يصدر فيه الخطاب، يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار »[5].

(١) ينظر، الخصائص، بتحقيق محمد علي النجار، ج١، ص ٨١.

(٢) ينظر، الخصائص، بتحقيق محمد علي النجار، ج١، ص١١١.

(٣) ينظر، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث دراسة في النشاط اللساني العربي، فاطمة الهاشمي بكوش، ايتراك للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط١، ٢٠٠٤، ص ٥٩.

(٤) الخصائص، بتحقيق محمد علي النجار، ج١، ص ٢٤٧.

(٥) نقلا عن دلائل اكتساب اللغة في التراث اللساني العربي، بشير إبرير، ص٧٣.

وذهب التوحيدي "ت٤٠٠هـ" إلى أن من أسباب قصور أو تعذر عملية التخاطب من تحقيق هدفها هو أن يكون المخاطَب بطئ الفهم، أو يعاني عيوبا سمعية، فيقول: «فقد بان الآن أن مركب اللفظ لا يحوز مبسوط العقل ؛ وليس في قوة اللفظ من أي لغة كان أن يملك ذلك المبسوط ويحيط به، ويَنصب عليه سورا...»(١).

أو أنه يجهل قواعد اللغة، مما يبعث في نفسه الضجر والملل، ويصير يوسوس مع نفسه حائرا غير مستوعب لما سمعه، وفي هذا الصدد يروي لنا التوحيدي "قصة" الرجل الذي سمع كلاما يتحدث فيه أصحابه عن مسائل نحوية، جاعلين كلامهم وفق سنن العرب في كلامها ليصرفوه بوجوه مختلفة، لكن هذا الرجل يجهل تلك الأساليب، مما بعث في نفسه القلق والارتباك، قال "أبو حيان التوحيدي" : «وقف أعرابي على مجلس الأخفش فسمع كلام أهله في النَّحو وما يدخُل معه، فحار وعجب، وأطرق ووسوس، فقال له الأخفش: ما تسمع يا أخا العرب؟ قال: أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا»(٢).

ويتبين من كلام التوحيدي أن الرجل يدعو المخاطَب إلى امتلاك حصيلة لغوية ومعرفة بنظام لغة التخاطب، فلا يبقى جاهلا بها، ذلك أن: «الجهل ليس من الأخلاق....»(٣).

وأن يتدبر الكلام ويحسن تأويله: «وأما بلاغة التأويل فهي التي تُحوِجُ لغموضها إلى التدبر والتصفح، وهذان يفيدان من المسموع وجوها مختلفة كثيرة نافعة»(٤).

وأن يعمل فكره في المعاني التي يحويها الخطاب:« فإذا لقيها الفكر بالذهن الوثيق والفهم الدّقيق ألقى ذلك إلى العبارة »(٥).

(١) الإمتاع والمؤانسة، بتحقيق وتعليق وفهرسة غريد الشيخ محمد وإيمان الشيخ محمد، ص٧٧.

(٢) الإمتاع والمؤانسة، بتحقيق وتعليق وفهرسة غريد الشيخ محمد وإيمان الشيخ محمد، ص٢١٧.

(٣) الإمتاع والمؤانسة، بتحقيق وتعليق وفهرسة غريد الشيخ محمد وإيمان الشيخ محمد، ص ٩١.

(٤) الإمتاع والمؤانسة، بتحقيق وتعليق وفهرسة غريد الشيخ محمد وإيمان الشيخ محمد، ص٢١٩.

(٥) الإمتاع والمؤانسة، بتحقيق وتعليق وفهرسة غريد الشيخ محمد وإيمان الشيخ محمد، ص ٢١٦.

وواضح أن "التوحيدي" كغيره ممن سبقوه من علماء العربية، ممن يدعون إجمالا المخاطَب إلى تأهيل نفسه علميا، حتى يكون ممن لهم أهلية تلقي الخطاب، ويستطيع بذلك استيعاب معناه وهذا يحصل له بعد امتلاكه لنظام اللغة وأساليب التعبير فيها.

وإلى هذا أيضا قصد "القاضي عبد الجبار- ت ٤١٥ هـ" الذي نبّه المخاطَب إلى جملة من المبادئ، تساعده على تحليل ما يلقى على مسمعه من كلام، منها ضرورة توخيه مبدأ التأويل للخطاب، مستخدما اللغة التي تواضعت عليها العرب، بوصفها وسيلة، يتم بوساطتها إرساء الفهم: «لأن الغرض بالأدلة الوصول بها إلى المعارف دون سائر الأفعال»(١). وهذا بالاستناد للعقل، باعتباره قوة، تساعد على إدراك الكلام(٢).

وتتأتّى مزيته من قدرته على الكشف والإبانة، فإذا كانت الدلالات متشابكة فإن العقل قادر على الفصل بينها. ومن ثم فإنَّ دقة التأمل بالنظر وإعمال الفكر والعقل من شأنها أن تؤدي إلى حصول الدلالة والمعنى لديه، قال القاضي عبدالجبار: «إنَّ الناظر في الدليل يقع له العلم»(٣). وهذا يحصل بإدراكه العلاقات التركيبية للكلام وإخراج عناصرها، ومعرفة قصد وحكمة المخاطِب المبثوثة في الخطاب، مادامت وظيفته تكمن في فهم الخطاب وإبانة أنساقه، وهذا يتوقف أيضا على معرفته الوافية لكلام العرب، وما تواضعت عليه من أساليب مختلفة في كلامها، مدركا لمزاياه وأغراضه في التركيب: «وأما العلم بالبيان، فهو العلم بكلام العرب ومواضعتها، ومواقع فائدته»(٤).

(١) متشابه القرآن، القسم الثاني، تحقيق عدنان زرزور، دار التراث، القاهرة، ١٩٦٦، ص٧٣٢.

(٢) ينظر، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٣، ١٩٩٦، ص ٦٠٠.

(٣) المغني في أبواب التوحيد والعدل، ج١٥، ص٣٤٨.

(٤) متشابه القرآن، القسم الثاني، ص٤٨٨.

وفي حال انطواء الخطاب على غموض دلالي في بنائه، يستنجد بحال المخاطِب؛ لأنَّ معرفتها هي المنقذ من حالة التردد والتذبذب الدلالين، وهي المرجَّح الوحيد لمعرفة دلالته، مثلما يقول "أبو الحسن البصري- ت٤٣٦هـ" : «واعلم أن كل خطاب، فإنه لا بد في الاستدلال به من اعتبار حال المتكلم به. ألا ترى أنَّا نعتبر حكمته؟ وإنما أردنا الأحوال التي لها نعدل بالخطاب من معنى إلى معنى، مع كونه مترددا بينهما»(١).

أمَّا عبد القاهر الجرجاني "ت٤٧١ هـ" فقد وضع للمخاطَب شروطا في تلقي الخطاب، وهي على هذا النَّحو: - العلم باللغة: طالب عبد القاهر الجرجاني المخاطَب الذي استعاض عنه بمصطلح المفسِّر، والسامع- إلى الإلمام بقضايا اللغة ونظامها النحوي، حتى يتمكن من تفسير معاني الكلام، فلا يعقل أن يكون جاهلا بها، فيقول: « . . .لا يخلو السامع من أن يكون عالما باللغة وبمعاني الألفاظ التي يسمعها. . . »(٢)، فإن كان غير ذلك فإنه لا يستوعب مضمونه، ولذا حثه على اكتساب قواعد اللغة وأساليب العرب في التعبير، ذلك أن نظم الكلم يكون وفقا لمعاني النحو، ولهذا نلاحظ على الجرجاني في تحليله للعلاقات النحوية ميله إلى ربطها بالمخاطَب، جاعلا مهمة الناظم تهدف إلى توصيل المعنى إليه ـ المخاطَب ـ باعتبار وجوده في عملية النظم وجودا بينا، فيقول: «وليت شعري هل يتصور وقوع قصد منك إلى معنى كلمة من دون أن تريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى، ومعنى القصد إلى معاني الكلم أن تُعلم السامع بها شيئا لا يعلمه، ومعلوم أنك أيها المتكلم لست تقصد أن تُعلم السامع معاني الكلم المفردة التي تُكلّمه بها، فلا تقول: خرج زيد لتعلمه معنى خرج في اللغة، ومعنى زيد كيف ومحال أن تكلمه بألفاظ لا يعرف هو معانيها كما تعرف؟»(٣).

(١) المعتمد في أصول الفقه، ج٢، ص ٩١٣.

(٢) دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص١٨٠.

(٣) دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص٣٧٥.

ويجب عليه- المخاطَب- إدراك ضروب الكلام وأساليبه المختلفة، فهناك ما يبنى على الحقيقة نحو قولك مثلا: خرج زيد، حيث يكون واضحا من ظاهره، وضرب آخر يحتم عليه إدراك معناه من طريق معرفته المسبقة بالصور البيانية، كالمجاز، والكناية، وغيرها، ذلك أن العرب تنقل كلامها من صورة إلى صورة أخرى، مراعية أساليبها وسننها في الكلام، فقد تستخدم فيه المجاز طريقا في نظم الكلام: «ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل.....ألا ترى أنك إذا قلت: هو كثير رماد القدر، أو قلت: طويل النجاد، أو قلت في المرأة نؤوم الضحى، فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا هو غرضك كمعرفتك من كثير رماد القدر أنه مضياف ومن طويل النجاد أنه طويل القامة ومن نؤوم الضحى في المرأة أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها»[1]. ومن تم فإن بلوغه التفسير الكامل للكلام لن يتأتى إلا بمعرفته الضمنية لنظام اللغة وقواعدها ووجوه تصريف الكلام فيها، حتى: «... (لا) يبقى من معنى المفسر شيء لا يكون إلى العلم به سبيل»[2]. فإدراكه لدلالات الصور البيانية، نحو قولك مثلا: فلان كثير الرماد. فهذه استعارة مكنية، وظفها الناظم، للدلالة على معنيين، معنى ظاهري أو لنقل: بنية سطحية، وهي رماد القدر الذي ينتج عن احتراق الحطب، فيتشكل الرماد ويطهى الطعام، ومعنى باطني، يتطلب من المخاطَب الوصول إليه، والمتمثل في الدلالة على الكرم، فكثرة الطهي، تدل على نبالة وحسن الكرم. ولذلك لا يبقى المخاطَب حبيس المعنى الظاهري في أثناء تحليله للخطاب الملقى عليه، وإلا فإنه يشوّه مضمونه، ولا يصل إلى المراد منه.

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص١٧٧.

(٢) دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص٢٧٣.

-تهيؤه لتلقي الكلام: رأى عبد القاهر الجرجاني أن حرص المخاطَب على تلقي الكلام/الخطاب أمر ضروري ليتمكن من استيعابه، ولذا حثّ المخاطِب إلى أنه لا يوجه خطابه لمن هم ليسوا أهل اله، أو لا يعيرونه عناية واهتماما به، فيقول: «أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها (مزايا النظم وفروقه في المعنى النحوي)، وتحدث له علما بها، حتى يكون مهيئا لإدراكها، وتكون فيه طبيعة قابلة لها، ويكون له ذوق وقريحة يجد لهما في نفسه إحساسا»(١). ومن ثم فإن إقباله على تلقيه بإرادة وعزيمة، وتذوقه له، من شأنها أن تساعده على فهمه، وبالتالي تحصل الفائدة العامة التي يهدف إليها الخطاب، قال عبد القاهر الجرجاني: «واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السامع ولا يجد لديه قبولا حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة..»(٢). ولذلك فإن معرفته بعلوم اللغة، وتهيؤه لاستقبال وتلقي الكلام، يعينانه على بلوغ مقاصد ومعاني الكلام/الخطاب ومزاياه.

- إعمال الفكر في تحليل الخطاب: ينبه "عبد القاهر" المخاطَب إلى أن المعرفة بحال ناظم الكلام تساعده على إدراك وفك رموز الخطاب، ذلك أنَّ: «الاعتبار ينبغي أن يكون بحال الواضع للكلام والمؤلف له...»(٣)، حاثا إياه على إعمال فكره للوصول إلى معانيه، وهذا لن يتأتى له إلا بالمشقة والغوص في مضامينه، يقول: «قد تحمل فيه المشقة الشديدة وقطع إليه الشقة البعيدة، وأنه لم يصل إلى دره حتى غاص، وأنه لم ينل المطلوب منه حتى كابد منه الامتناع والاعتياص»(٤) فهو يتحمل مشقة بلوغ معاني الخطاب، مثل المخاطِب الذي أبدع المعنى بعد أن كابد منه الامتناع والاعتياص، وكأني به يطلب من المخاطَب أن يعيش التجربة ذاتها

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ٣٤٨.

(٢) دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص١٩٥.

(٣) دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ٢٦٧.

(٤) دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ١٤٥.

التي عاشها المخاطِب، متحملا مغامرته ومشقته، معيدا صياغة الخطاب في صورة أخرى أو لنقل أنه يعيد بناء الخطاب من حيث الدلالة، قال عبد القاهر الجرجاني: « المعنى إذا أتاك ممثلا فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة، وتحريك الخاطر له... وما كان منه ألطف، كان امتناعه عليك أكثر وإباؤه أظهر، واحتياجه أشد، ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له كان نيله أحلى وبالميزة أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف...فإن قلت فيجب على هذا أن يكون التعقيد والتعمية..... فالجواب أني لم أرد هذا الحد من الفكر والتعب، وإنما أردت القدر الذي يحتاج إليه »(١)، مفضلا المعاني التي يصل إليها المخاطَب بالمشقة وبذل الجهد وإعمال فكره، مشيرا إلى أن الخطاب لا ينبغي أن يكون كله مبنيا على الحقيقة وإنما مزيته تكمن في احتوائه على قدر من الصور البيانية؛ وهي ليست بقصد التعمية أو التعقيد والاعتياص على المخاطَب، وإنما يستعان بها لأجل إعمال المخاطَب فكره في كشف الغموض عن الخطاب وبلوغ معناه، معتبرا الغموض الذي يجيء عن جهل المخاطِب بأسس بناء الخطاب الذي يعلق به بالأمر الطبيعي، وسببه، هو سوء ترتيب ألفاظه، الشيء الذي يقود المخاطَب إلى طلب معنى الخطاب بالحيلة، واصفا هذا الضرب من الكلام بالمذموم، لأنه يتطلب جهدا يفوق طاقة المخاطَب.

والجرجاني - هنا - نجده يقدم دعوة صريحة إلى المخاطَب بضرورة إعمال عقله/فكره في تحليل وتفسير الخطاب، وهو ذات الأمر الذي يحث عليه مذهبه الأشعريّ، وعليه فإن العلاقة التي تربط المخاطِب بالمخاطَب - بنظر الجرجاني - علاقة معقدة متشابكة، تتطلب زادا معرفيا، وجهدا مضنيا، لبلوغ قراءة ممتعة للخطاب، وحدوث الانسجام بين المتخاطبين، ولهذا لم يغفل أسلافنا عن الإشارة إلى هذه

(١) أسرار البلاغة في علم البيان، ص١١٨.

العلاقة الحميمية بين المتفاعلين في الخطاب، بل حفلوا الموضوع بشتى دراساتهم وقراءاتهم للمخاطَب، الذي اشترطوا فيه توافره كما أسلفنا على جملة من الصفات التي لا تقل أهمية عما يدعو إليه الدرس اللساني، حديثا، ذلك إنَّ العلاقة بين المخاطِب والمخاطَب جد متميزة؛ لكون الخطاب: «لا يقول إلا بمشيئة كائن مدرك يطلق الكلام من قيد العلامات ويستخرج المعاني من منجم الألفاظ، والنص يرشح بعلامات منصوبة تشيء بجماله، ولكن الجمال لا ينتج ولا يفعل فعله إلا إذا احتضنه المتقبل الصريح»(١)، بمنأى عن صفة الارتجال في تلقي الخطاب، متميزا عن غيره من الناس، في الحكم، الخالي من الانفعال النفسي، مرتقيا إلى مرتبة إمعان النظر في الخطاب، وسبر أغواره والإحاطة بتفاصيله. ومن تم يتأتى له الحكم على جودته ومدى تماسكه، يقول "عبد القاهر": «واعلم أنك لا تشفي العلَّة ولا تنتهي إلى ثلج اليقين حتى تتجاوز حدّ العلم بالشيء مجملا إلى العلم به مفصَّلا، وحتى لا يقنعك إلاَّ النظر في زواياه والتغلغل في مكامنه»(٢).

وبنوع من التحفظ يمكن الحديث عن "المخاطَب المستهدف" الذي يعنيه الجرجاني، حين قال: «... لا يصادف القول موقعا من السامع، ولا يجد لديه قبولا حتى يكون من الحسن واللطف أصلا، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام فيجد الأريحية تارة ويعرى منها أخرى، وحتى إذا أعجبته عجب، وإذا نبهته لوضع المزية انتبه»(٣).

وبهذا يقرّ الجرجاني بتفاضل وتفاوت المخاطَبين في الفهم والتصور والتبين، إذ ميَّز بين السامع العالم باللغة ومعاني الألفاظ والجاهل بها، لذلك فهو يؤكد تفاوت

(١) جمالية الألفة، النص ومتقبله في التراث النقدي، شكري المبخوت، المجمع التونسي للعلوم والآداب، ١٩٩٣، ص ٥٣.

(٢) دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ١٧٥.

(٣) دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ١٢٣.

درجات فهم المتلقين لأي خطاب، حيث يقول: « .. ألا ترى أنه لا يفهمه حق فهمه إلا من له ذهن ونظر، يرتفع به عن طبقة العامة، فلا تراه إلا في الآداب والحكم المأثورة عن الفضلاء وذوي العقول الكاملة »(١). فالخطاب إذا يتلقاه المخاطَب، وهو الذي يقوم بفك ألغاز مختلف مستوياته الواحد تلو الآخر، وينتقل فيه من البنى السطحية إلى البنى العميقة، وعندما يفك رموز الكلمات فإنه لا يعير اهتمامه إلا للمعاني اللازمة لفهم الخطاب ؛ أي للعناصر التي تتضمنها شبكات الخطاب الدلالية، وهو مرهون بمعرفة حاله من لدن المخاطَب، حتى يصل إلى مغزى ومعنى الخطاب، فيجني الفائدة منه.

ويتضح لنا جليا مما سبق مدى عناية "عبد القاهر الجرجاني" بعملية التخاطب وأركانها ويبلغ شأوها عنده في حديثه عن الإعجاز، إذ يستنفر في المخاطَب كل طاقاته في التسامي إلى ميزة الخطاب المعجز، وما يعرض له فيه من تقديم وتأخير، وذكر وحذف وفصل، ووصل، وقصر: « حيث تنظر بقلبك، وتستعين بفكرك، وتعمل رويّتك، وتراجع عقلك، وتستنجد في الجملة فهمك »(٢). وهي التي أطلق عليها الدرس اللساني الحديث اسم "قواعد التماسك النحوي"(٣)، فأداة العطف مثلا عند "عبد القاهر" من الروابط التي لا غنى عنها في وصل الجمل بعضها ببعض، ومن أشهرها "الفاء" التي تفيد الإشراك في الحكم، والترتيب، والفصل، في نحو: « إذا قلنا: زيدٌ قائم وعمرو قاعد، فإنا لا نرى ههنا حكما تزعم أن الواو جاءت للجمع بين الجملتين فيه.... »(٤) ينضاف إليها الربط بالتقديم والتأخير، والحذف، والتكرير...الخ .

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص٢٢٥ .

(٢) دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ٢٦ .

(٣) ينظر، في اللسانيات ونحو النص ، إبراهيم خليل، ص ٢١٩ .

(٤) دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ١٥٣ .

فالعلاقات بين أجزاء النسق التعبيري اللغوي، وخصوصية الإبداع فيها، لا تدرك إلا بتلك الخصوصية في المخاطَب، مستندا في تفضيله لكلام على آخر على حجج وأسس علمية، قال عبد القاهر الجرجاني: «لابد لكل كلام تستحسنه، ولفظ تستجيده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة، وعلّة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل»(١).

ويظهر من كلامه هذا أيضا أن "الجرجاني" يحكّم المعنى في تمييز الخطابات، وليس باختلاف اللفظ: «لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على حذوها، لكان ينبغي أن لا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه، لأنهما يحسّان بتوالي الألفاظ في النطق إحساسا واحدا ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئا يجهله الآخر»(٢). كما نبّه المخاطَب إلى حسن الانتباه، عند تلقي الخطاب، وعدم الاقتصار على السمع بالأذن فحسب؛ لأنَّ مزية النظم: «من حيّز المعاني دون الألفاظ، وأنها ليست لك حيث تسمع بأذنك، بل حيث تنظر بقلبك، وتستعين بفكرك، وتعمل رويَّتك، وتراجع عقلك، وتَسْتنجدُ في الجملة فهمك»(٣).

فحصول عملية التخاطب وتحقيق هدفها، يجب أن يكون فيها المخاطَب الذي هو أحد أركانها متصفا بهذه الخصوصيات، ويعمل بها في تحليله للخطاب، وهي: معرفته وعلمه بلغة التخاطب وإدراك واف بنظامها النحوي وأساليب التعبير فيها، وثانيها أن يكون مهيئا لتلقي الخطاب بعزيمة وإرادة وتذوق له من خلال ما يتركه فيه من أثر في نفسيته، وثالثها، معرفته بحال المخاطِب، لما لها من نفع في شرح وإدراك معنى الخطاب، ورابعها، ضرورة سبره وتغلغله في أعماق الخطاب؛

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ٤٥.

(٢) دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ٥٢.

(٣) دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ٥٩.

لاستجلاء معانيه العميقة، وهذا من خلال إعمال فكره، وفي هذا المضمار يورد لنا عبد القاهر الجرجاني مثالا عن المخاطَب المدرك للتراكيب اللغوية، والذي له قدرات خيالية في الغوص في مكنونات الخطاب، فانطلاقا من معرفته الدقيقة بالتراكيب اللغوية يدرك الفروق بين معانيها، فدخول "إنَّ" على الجملة، أو عدم دخولها ليس سواء كما يقول عبد القاهر، مستشهدا بقول: «بشار بن برد[1] (بحر الخفيف):

بَكِّرا صَاحِبي قَبْلَ الهَجيْر إنَّ ذاك النجَاحُ في التَّبْكيْر.

وما أنشدته معه من قول بعض العرب (بحر الرجز):

فَغنِّهَا وَهِيَ لَكَ الفِدَاءُ إنَّ غنَاءَ الإبل الْحُدَاءُ .

وذلك أنه هل شيء أبين في الفائدة، وأدل على أن ليس سواء دخولها، وأن لا تدخل؛ من أنك ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها وتأتلف معه، وتتحد به حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغا واحدا، وكأن أحدهما قد سبك في الآخر؟ هذه هي الصورة حتى إذا جئت إلى "إنَّ" فأسقطتها، رأيت الثاني: منهما قد نبا عن الأول، وتجافى معناه عن معناه، ورأيته لا يتصل به، ولا يكون منه بسبيل، حتى تجيء بـ"الفاء"، فنقول: "بكرا صاحبي قبل الهجير، فذاك النجاح في التَّبْكيْر، و"غنّها" وهي لك الفداء، فغناء الإبل الحداء". ثم لا ترى" الفاء" تعيد الجملتين إلى ما كانتا عليه من الألفة، وترد عليك الذي كنت تجد ب"إنَّ"من المعنى»[2] من هذا النص نرى الجرجاني، يقدم تعليلا وتفسيرا لاستعمال "بشار بن برد" في بيته الشعري للفظة "إنَّ"، ولم يستعمل الفاء في مطلع القصيدة في بيان وجه قوله: "إنّ ذاك النَّجاح في التَّبكير"، وأنه قال: إنّ ذاك النجاح ولم يقل: بكرا فالنجاح، حيث تكمن الغرابة في إفادة التعليل، وهي غرابة شاملة، يحتاج إدراكها إلى معرفة

(١) ديوانه، تقديم إحسان عباس، الناشر، دار صادر للطباعة والنشر، ط٢، ٢٠٠٠، ص ٢١٥.

(٢) دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ٢٠٩.

الفروق الدقيقة، والأسرار الخفية بين الألفاظ، وبين الأساليب، ومن ثم فإن تفضيل بشّار لـ (إنَّ) في هذه القصيدة، يرجع إلى خفاء دلالتها ولطف المعنى، بعيدا عن الاستكراه؛ ولئلا تكون اللفظة أعرابية أو وحشية. ربطا ملائما ولم تعده إليه، فأحدث فجوة بينهما. محدثة تناغما في موسيقى البيت بعكس إذا استعمل "الفاء" في مطلع البيت فإنها لا تعيد الشطر الأول ولا تربطه بالثاني ربطا يولد انسجاما بينهما، ولا تأنس الأذن لسماعه، بل إنها تحدث فجوة بين شطري البيت.

وجعل "الجرجاني" ذوق المخاطَب العنصر الفيصل في إدراك دقائق النظم، ومزاياه، منبها غير مرة إلى أن" من لا ذوق له لن يدرك أسرار النظم، ولا جمالياته، فهو يعوّل عليه في فهم دقائق النظم، في قوله: «فانظر إلى قول البحتري(١) (بحر الكامل):

دَان عَلَى أيْدِي العُفَاة وَشَاسِعٌ	عَن كُلِ ند فِي النَّدَى وَضَرِيب
كَالْبَدر أفْرَطَ فِي الْعلو وَضوؤُهُ	للعصْبَـة السَّارِيْنَ جـدٌ قَـرِيْبب

وفكر في حالك وحال المعنى معك وأنت في البيت الأول لم تنته إلى الثاني، ولم تتدبر نصرته إياه، وتمثيله له فيما يُملى على الإنسان عيناه، ويؤدي إليه ناظراه، ثم قسمهما على الحال وقد وقفت عليه، وتأملت طرفيه فإنك تعلم بُعْدَ ما بين حالتيك، وشدة تفاوتهما في تمكن المعنى لديك وتحببه إليك ونبله في نفسك، وتوفيره لأنسك، وتحكم لي بالصدق فيما قلت، والحق فيما ادعيت »(٢).

ومحصول القول: إنَّ عبد القاهر الجرجاني استطاع أن يقدم لنا تصورا متكاملا لعملية التخاطب، من خلال حديثه عن نظم الكلم، محددا الشروط الواجب توافرها في كل ركن من أركانها، فمن نصوصه تبينا مقتضيات ودور المخاطَب التي تسند إليه وظيفة فهم الخطاب عند تلقيه له، ولن يتحقق له ذلك إلا بعدما يعمل

(١) الديوان، دار صادر، بيروت، ج٢، ص ٣٣٤.

(٢) أسرار البلاغة في علم البيان، ص ص٩٨، ٩٩.

بالشروط التي أوردها عبد القاهر الجرجاني ومن سبقوه من العلماء، فهو برأيه القسيم ـ المفسِّر ـ الموضوعي للمخاطِب (الناظم) أو لنقل شريك الناظم في عملية التخاطب، فإليه تعزى عملية تحليل وتفسير الكلم / الخطاب.

وانطلاقا من تحليله لهذه الخصوصيات التي ذكرها عبد القاهر الجرجاني، والتي نجملها في هذا المخطط البياني:

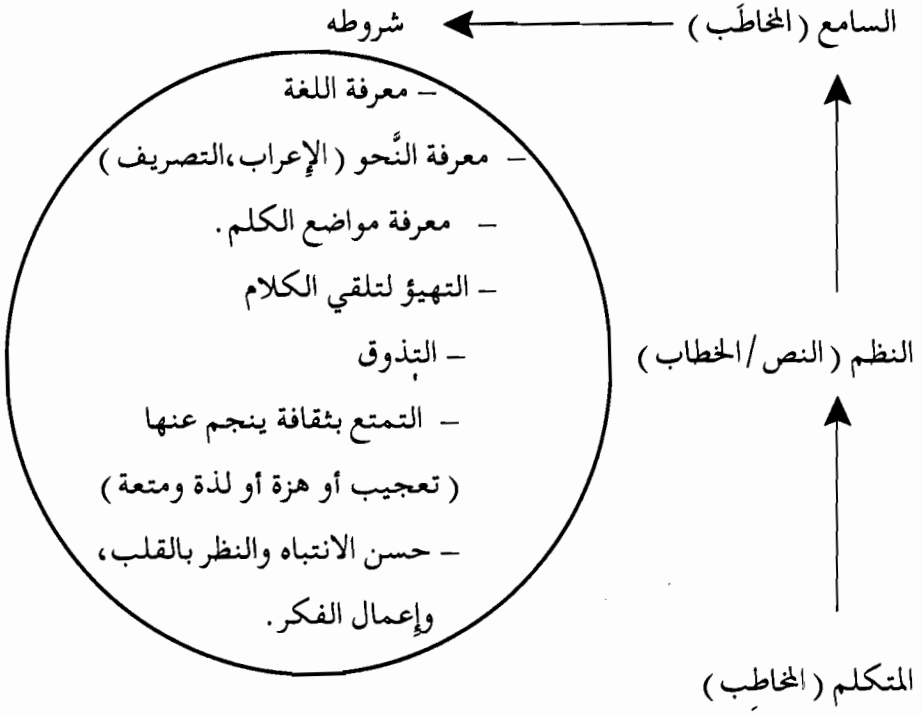

وهي التي أكدّها رولان بارت الذي اعتبر أن حجم ثقافة المخاطَب التي يتمتع بها هي التي تحدد تلذذه بالخطاب ومدى تأثيره فيه[1]. كما يظهر في هذا المخطط البياني:

(١) لذة النص، رولان بارت، ترجمة فؤاد صفا والحسين سبحان، دار توبقال للنشر، ط١، الدار البيضاء، ١٩٨٨، ص ٥٣.

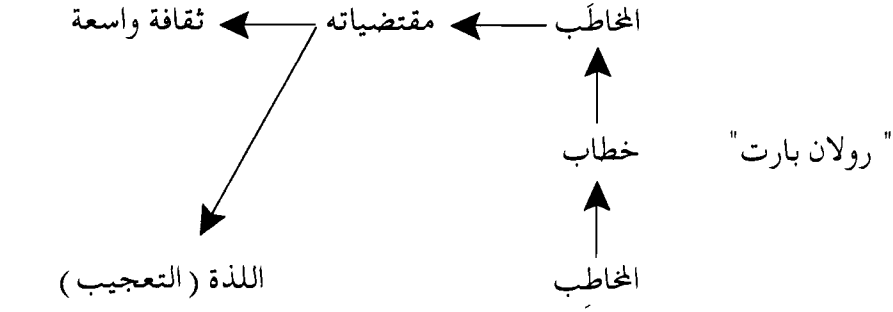

مسويا بين المبدع (المخاطِب) والمخاطَب، بل إنه وحَّد بينهما: « حتى قال بوجود الكتابة القارئة »(١) ذلك في رأيه أن الخطاب يتكلم كما يريد القارئ.

ونبهت نظرية التخاطب الألمانية إلى ضرورة مراعاة المخاطَب في عملية التخاطب، حيث أحدثت جمالية التخاطب ـ التي يعد هانس روبيرت ياوس (Yause) داعيتها ـ ثورة في الدراسات الأدبية، فوسعوا مفهوم التلقي، وأقاموه: « على مفهوم التجربة الجمالية بأبعادها الثلاثة: البعد الاستقبالي والبعد التطهيري والبعد التخاطبي »(٢)، من خلال اتجاه مدرستها التي تعرف بـ "مدرسة كونسطانس" (Constance)، ورأت أنَّ المشاركة الفعالة بين المخاطِب والمخاطَب هي التي تحدد قيمته، وذلك بالاتكاء على القراءة الجادة من لدن المخاطَب، ذلك أنَّ المبدع أو المؤلف أو المخاطِب، ما هو إلا قارئ أولي للعمل السابق، ليأتي المخاطَب المتسلح بشتى المعارف ليعيد إنتاج ذلك الخطاب الذي ألفه المخاطِب.

ومما لا مراء فيه، يتبين لنا جليا أن العلاقة بين الخطاب ومتلقيه جد مهمة، ينبغي على مؤلفه مراعاة سمات المتلقين ومستواهم العلمي، وكذا جماليات الخطاب،

(١) نقلا عن، البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب مكتبة لبنان، ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، ط١، ١٩٩٤، ص ٢٣٩.

(٢) "تلقي رولان بارت في الخطاب العربي النقدي واللساني والترجمي" كتاب لذة النص"نموذجا"، محمد خير البقاعي، عالم الفكر، مج٢٧، ع١، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٨، ص٢٦.

وحسن التأليف بين عناصره حتى تترك أثرا جميلا في نفسية المتلقي، الذي هو الآخر، ينبغي عليه أن يكون مزودا بزاد معرفي، وذوق جميل في تلقي الخطاب، وإجمالا يمكننا حصر تلك الخصوصيات الواجب توافرها في المخاطَب في العناصر الآتية:

– أن يكون عارفا بنظام لغة الخطاب، مدركا لمختلف أساليب التعبير فيها، ووجوه تصريف الكلام فيها، مما يتطلب منه العمل على امتلاك حصيلة معرفية متنوعة (لغوية وثقافية وحوارية) يشرك فيها المخاطِب.

– الحرص على تلقيه للخطاب؛ قصد فهمه ومعرفة معانية، وهذا يحصل له من خلال تهيئه لسماعه، بإرادة وعزيمة قوية، لافتا عنايته واهتمامه إزاءه، غير مشتت البال بين أشياء أخرى، تلهيه أو تشغله عن فهمه.

– إعمال فكره وعقله في تحليل وتفسير مضمون الخطاب، وسبره لأغواره وأعماقه، ولا يبقى حبيس التفسيرات السطحية أو الساذجة، انطلاقا من ثقافته الواسعة. وهي ذات الأفكار التي يدعو إلى تبنيها الدرس اللساني الحديث، وبخاصة ما أورده أنصار نظرية التخاطب في الدراسات اللسانية الحديثة.

المصادر والمراجع

- **المصادر**:

* أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة، بيروت (د.ت).
* أدب الكاتب، ابن قتيبة، حققه محمد الدَّالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٩.
* الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تحقيق وتعليق وفهرسة غريد الشيخ محمد و إيمان الشيخ محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٤ .
* البيان والتبيين، الجاحظ، وضع حواشيه مُوفق شهاب الدّين، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٣ .
* دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، صحَّح أصله علاَّمتا المعقول والمنقول، محمد عبده ومحمد محمود التركزي الشنقيطي، علَّق عليه رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ٢٠٠١.
* الحيوان، الجاحظ، شرح وتحقيق يحي الشامي، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٨٦.
* الكتاب، سيبويه، مكتبة المتنبي، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، ط١، ١٣١٦هـ.
* المقتضب، المبرد، تحقيق عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت، ١٩٦٣ .
* متشابه القرآن، القسم الثاني، القاضي عبد الجبار ، تحقيق عدنان زرزور، دار التراث، القاهرة، ١٩٦٦.
* المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار، تحقيق أمين الخولي، القاهرة، ١٩٦٠ .

* الرّسالة، الشافعي، بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، ١٣٠٩هـ.
* رسائل الجاحظ، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط١، ١٩٧٩.
* شرح الأصول الخمسة، القاضي عبد الجبار، تحقيق عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٣، ١٩٩٦.
* الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩.

المراجع:

* البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان، ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، ط١، ١٩٩٤
* دلائل اكتساب اللغة في التراث اللساني العربي، بشير إبرير، منشورات مخبر اللسانيات واللغة العربية، قسم اللغة – العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار، عنابة، مطبعة المعارف، عنابة، الجزائر، ٢٠٠٧.
* اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٨.
* لذة النص، رولان بارت، ترجمة فؤاد صفا والحسين سبحان،دار توبقال للنشر، ط١، الدار البيضاء، ١٩٨٨.
* نشأة الدرس اللساني العربي الحديث دراسة في النشاط اللساني العربي، فاطمة الهاشمي بكوش، ايتراك للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط١،٢٠٠٤
* في اللسانيات ونحو النص، إبراهيم خليل، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٧

* تلقي رولان بارت في الخطاب العربي النقدي واللساني والترجمي" كتاب لذة النص"نموذجا"، محمد خير البقاعي، عالم الفكر، مج ٢٧ ع١، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٨.

الدواوين الشعرية:

* الديوان، بشار بن برد، تقديم إحسان عباس، الناشر، دار صادر للطباعة والنشر، ط٢، ٢٠٠٠.

* الديوان، البحتري، دار صادر، بيروت.

المجلات:

* مجلة عالم الفكر، مجلة دورية محكمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، المجلد ٣٣ يوليو/سبتمبر ٢٠٠٤.

- المراجع الأجنبية:

-Dictionnaire usue 1760 dessins regroupé en 140 planches 288 photos et un atlas 48 pages, Larousse, paris cedex 06, 1989.